{وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا}

العقل والدين والوجود الإنساني

عبد الرحمن السالمي *

1

لم يعرف الفكر الإنساني جدالاً أطول ولا- أعمق من ذاك الذي دار وما يزال يدور بين مسمَّى العقل ومسمَّى الدِّين. وليس معنى ذلك أن سائر المفكرين قالوا بذاك الصراع، لكنهم -وهم يحاولون إنكاره- أقرُّوا به دون أن يشعروا، المحاسبي (243هـ) مثلاً قال بالعقل عن الله، والغزالي (505هـ) قال: إن الشرع عقل من خارج، والعقل شرعٌ من داخل، وهما يتكاملان ولا- يتناقضان، لأن مصدرهما واحد وهو ما كان جدالاً في عُمان خلال القرن الرابع بين ابن بركة وأبي سعيد الكدمي، حيث اعتبر الأول أن العقل يأتي من التجربة والاكتساب، بينما الثاني قال: إنه فيض رباني، وفي حين انطلق الفلاسفة والمفكرون القدامى من مقولة (العقل الكلي) - انصرف المفكرون المؤمنون بالدِّين أصلاً ووظائفه إلى القول بتصاغر العقل أو محدوديته وعدم قدرته على الإحاطة بالعالم الأكبر (الإنسان)، ومن هنا تأتي الحاجة الإنسانية إلى الدِّين ليتجاوز الشأن التدبيريَّ ومتفرعاته، وعن مقولة (العقل الكلي) القديمة تفرعت المقولات الحديثة كالعقل المحصن أو العقل المجدَّد، وعن مقولة محدودية العقل أو تدبيريته لدى المؤمنين، تفرعت مقولات العناية، ورعاية الله -عزَّ وجلَّ- للإنسان إكمالاً لإنسانيته، وإقداراً له على الرؤية الصحيحة للكون والعالم والمجتمعات البشرية والتصرف فيها.

تنطوي مقولة (العقل الكلّي) ومتفرعاتها على اعتبار العقل قوة عليا أو جوهراً فرداً، يتقاسمه بنو البشر بمقادير غير متساوية؛ ولذلك فهناك أفرادٌ مميَّزون أو نُخبٌ مخصوصة يتجلَّى في رؤاها وتدبيراتها ذلك الانكشاف على المجردات والماديات في الوقت نفسه، واستناداً لذلك لا تعود هناك ضرورة لذاتٍ عُليا خالقة أو ضابطة، وحتى إن وُجدت فإنها لا تكون فاعلة خارج مدارك النخبة الإنسانية المزودة بالقدرات العقلية الخاصة، فبغض النظر عن أصل الوجود والإنسان، يكونُ من طبائع النُخَب في ظلّ هذا المفهوم للعقل التحكم في هذا الوجود وقوده باتجاه اكتشاف مصائره ومصالحه والسلوك فكراً وعملاً بمقتضى تدابير الحكمة العقلية وانتظاماتها. أما الفئة المؤمنة من ضمن هذه الرؤية فتعتبر الدين عقلاً كلياً أو روحاً سارياً أو نظاماً طبيعياً أو فطرياً يَهبُ تلك القوة المجددة الثقة والأمن، في الوقت الذي تقومُ فيه بمهامها على هذه الأرض، فالدين لدى هذه الفئة من المؤمنين بالعقل الطبيعي هو قوة الإيمان واليقين، وهي قد تتمثل في فردٍ أو مؤسسةٍ تكون هي عقل العالم.

أما كثرة أهل الدين، وبخاصة ديانات التوحيد فلا ترى العقل شيئاً خارجياً أو جوهراً كلياً أو جوهراً فرداً، بل تعتبره غريزة من ضمن غرائز الإنسان ودوافعه وقواه، وكما لكل دافع أو غريزة وظيفة ضمن القوى الإنسانية؛ فإن وظيفة تلك الغريزة (العقل) ضبط الحياة الإنسانية وتدبيرها بما تقتضيه استمرارية الإنسان والوصول بوجوده إلى مراتب الكمال والسعادة، فهذه الكثرة من أهل الإيمان الديني تتفق مع القائلين بالوظيفية الضبطية والتدبيرية للعقل، لكنها تختلف معهم في أصل ذاك العقل وطبيعته، وتوزُّعه بين البشر.

العقل لدى أهل الإيمان كما قال الغزالي: شرعٌ (انضباط وتدبير) لكنه من داخل، ولأنه دافعٌ أو قوةٌ إنسانية فهو موجودٌ لدى بني البشر بالتساوي في الأصل، أما ما يتميز به إنسان عن آخر فيأتي بالتعلم والتجارب والنموّ والازدياد بالمعارف وبالذاكرة وبالإفادة من البيئات المحيطة، ومن التراكم الذي يتم في أعمار العالم وقرونه ويبدو في الأفكار وفي التدبيرات، ولأنّ الإنسان ليس فكراً وتجربة وتراكماً وحسب؛ بل له أصل أول في الخلق، وأصولٌ في المرئي وغير المرئي، يأتي الإيمان باعتباره شرعاً من خارج، وهذا هو الجزء الآخر من مقولة الغزالي السالفة الذكر.

ما محصلة هذه الجدلية، وما هي مآلاتها؟ المحصلة تتمثل في أن البشرية ما كان توزعها إلى أديانٍ وعقائد ومذاهب من أجل إيجاد وسائل للاجتماع والتماسك، بل لأن الإيمان الديني يهبُ هذا الوجود معنى لا تصنعه تدبيرات العقول وحكمتها وتجاربها، بل إنّ الأمر الإنساني يتجاوز ذلك بالقطع باتجاه ثلاثة آفاق: أفق أصل الخلق والوجود، وأفق التوق والشوق الداخلي لاكتساب القدرة على الاستمرار، وأخيراً أفق القيم غير المادية (الأخلاق) والتي تُعطي الوجود الإنساني الواقعي سماته الباقية ضبطاً وربطاً، لكن أيضاً عملاً وتدبيراً بما يتجاوز الأنا المادي والطبيعي والذاتي.

2

يشهد العالم المعاصر متغيرات شتى عاصفة، يمكن جمعها في ظاهرتين بارزتين: تقدم علمي وتكنولوجي هائل، صار الحديث عنه وعن انتظاماته واختلالاته يوضَعُ تحت اسم (العولمة) وثوران ديني كبيرٌ وهائلٌ أيضاً، يوحي ببحثٍ كبير عن مستقرات واهتمامات ما يستطيع بعد التقدم أو التغير التكنولوجي استيعابها أو إرضاءها، ويريد كثيرون من المفكرين والمراقبين أن يفهموا ذلك باعتباره صراعاً بين العقل والإيمان، هؤلاء (ومن ضمنهم البابا بنديكتوس السادس عشر كما يبدو من محاضرته في سبتمبر عام 2006) يعتبرون أن هذه المنجزات العلمية الكبرى هي من نتاج العقل الإنساني، الذي لم يستطع رغم تفوقه أن يضعها في خدمة حل المشكلات البشرية الكبرى والمتفاقمة، ولذلك فهم يقترحون منهجاً لمباشرة الحلول السليمة يتمثل في العودة إلى الطبيعة الإنسانية الفطرية، أي العودة إلى الإيمان الديني، وقد يكون في هذا الفهم الكثير من الاختزال، لكننا حتى لو قلنا بسلامة هذه الرؤية -فإن الحل المقترح لن يستقيم خارج إنسانية الإنسان وأخلاقياته، فالمسألة تبدأ من مفهوم العقل، وهل هو جوهر وأصل أم أنه قوة تدبيرية إنسانية يعرض

لها الخطأ والصواب؟! فالقول بالجوهرية هو قول بالعصمة، والعصمة تعني الاستغناء، وتعني الاكتفاء، وتعني التجاهل ليس للإيمان فقط؛ بل وللأخلاق أيضا.

لقد طلب إلينا الله -عز وجل- في القرآن الكريم أن نحتكم لعقولنا وليس لأهوائنا في مثل قوله -سبحانه-: (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)(الحج:46)، وقال -تعالى-: (وما يعقلها إلا العالمون)(العنكبوت:43) فقد ربط الله -تعالى- العقل بالعلم كما ربط العلم بالعقل؛ لأن كمال الإنسان بهما، (وما يذكر إلا أولو الألباب)(البقرة:269).

وعندما يتعلق الأمر بتحديد الاتجاه وطلب الاستقامة، فإنه -جلّ وعلا- أرشدنا إلى الفهم الصحيح للمسألة الإنسانية بقوله: (اتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم)(البقرة:282).

فالتقوى عودة إلى الأصول، والتماس للعناية، وسؤال لها، وثقة بها، وفي هذا الإحساس الأخلاقي الإيماني يكمن بحث الإنسان عن المآلات والعواقب.